التصوير على الجدران

كان التصوير على الجدران معروفاً عند العرب فى الجاهلية[1] والإسلام ، لم تخل منه أخبارهم وأشعارهم . وكانت الكعبة المكرمة مصورة الجدران فى الجاهلية ، تعظم صورها وتماثيلها تعظيم عبادة[2] . فلما فتحت مكة أزيلت تلك الصور . ذكر ابن أبي الحديد فى «شرح نهج البلاغة» أنّ النبي عليه الصلاة والسلام بعث عمر بن الخطاب ومعه عثمان ابن طلحة ، وأمره أن يفتح البيت فلا يدع فيه صورة ولا تمثالاً إلا محاه ، فأزالها ، وترك صورة إبراهيم عليه السلام ، فأمره بمحوها* ، وقال : « قاتلهم الله ! جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام » .

وذكر أيضا فى رواية ، عن أسامة بن زيد ، أنه قال : دخلت مع رسول الله ، صلى الله عليه وآله ، الكعبة فرأى فيها صوراً ، فأمرنى أن آتيه فى دلو بماء ، فجعل يبلّ الثوب ويضرب به الصور ، ويقول : « قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون » . وذكر الحافظ ابن حجر فى « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » ، فى شرح غزوة الفتح ما يستفاد منه أن بقية بقيت من تلك الصور لخفائها على من محاها .

وروى عن ابن عائذ فى المغازى أن صورتى عيسى وأمه عليهما السلام بقيتا حتى رآهما من أسلم من نصارى غسان ، فقال : إنكما لبِبلاد غربة ، فلما هدم ابن الزبير البيت ذهبتا ، فلم يبق لهما أثر[3] .

ثم روى بعد ذلك عن ابن جريج أن بعضهم أدرك فى الكعبة تمثال مريم عليها السلام ، وفى حجرها ابنها مُزوقا ، وكان ذلك فى العمود الأوسط الذى يلى الباب ، ثم ذهب فى الحريق . قلنا والمراد بالتمثال هنا الصورة المنقوشة لا المخروطة بدليل قوله مزوّقا على العمود أى مصوراً بالدهان .

(*) سيأتى فى الكلام على التماثيل أن هذه الصورة كانت تمثالا مخروطا ؛ فالمراد بالمحو هنا مطلق الازالة بحك ما كان مدهونا وغسله ، وإتلاف ما كان ذا ظل .

وفى باب التصاوير من «صحيح البخارى» ، عن مسلم* أنه قال : كنا مع مسروق فى دار يسار بن نُمَيْر ، فرأى فى صفّته تماثيل ، فقال : سمعت عبد الله قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن من أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون » .

والمراد هنا بالتماثيل أيضاً الصور المنقوشة بالدهان على جدران الصفّة على ما يفهم من شروح الصحيح المذكور .

وعثر المنقّبون من الإفرنج فى آثار اليمن على نقوش فى الجدران فيها صور أناس يمانين ؛ بين رجّالة وفرسان ، ومتقرّبين بالضحايا للأوثان(٤) .

وذكر الهَمْدَانى فى «الإكليل» فى كلامه على رئام أنه كان أمام قصر أحد ملوك اليمن حائط فيه بلاطة فيها صورة الشمس والهلال(٥) ؛ فإذا خرج الملك ورآها كَفّر لها بأن يضع راحته تحت ذقنه ، ثم يخِرّ بذقنه عليها(٦) . وذكر فى موضع آخر من هذا الكتاب قصراً كان قديماً بتَدْمُر ، مصوَّر الحيطان (٧) ، وأورد قصيدة فى وصفه ، تنسب للنابغة ، وليست له ، ذكر فيها أنواع هذه الصور ؛ من فرسان مدجَّجين ، وصنوف من الحيوان كالثعالب والفيلة والأسود وغيرها ، منعنا كثرة ما بها من التحريف من إيرادها هنا .

وأنشد صاحب لسان العرب فى وصف بيت مصوَّر بأنواع التصاوير :

فيـــــه الغواة مصورو ن فحاجل منهم وراقصْ
والفيـــل يرتكب الردا ف عليه والأسد القُصاقِصْ(٨)

وفى كتاب «الفرج بعد الشدة» للتنوخى أن عبيد الله بن زياد لما بنى داره البيضاء بالبصرة بعد قتل الحسين رضى الله عنه صوَّر فى بابها رءوساً مقطّعة ، وصور فى دهليزها أسداً وكلباً وكبشاً ، وقال : أسد كالح ، وكبش ناطح ، وكلب نابح ؛ فمرَّ بالباب أعرابى ، فقال : أما إن صاحبها لا يسكنها إلا ليلة ؛ فضربه وحبسه . ووثب الناس بابن زياد فهرب من داره فى ليلته تلك ، وكسروا الحبس ، فخرج الأعرابى ولم يعد ابن زياد إلى داره(٩) .

وذكر المقدسى فى «أحسن التقاسيم» أن جدران المسجد الأموى بدمشق كانت مكسوة

(*) هو ابن صبيح أبو الضحى ، وهو بكنيته أشهر كما فى « فتح البارى » .

بالرخام المجزّع إلى قامتين ، ثم بالفُسَيْفِسَاء الملوّنة المذهبة إلى السقف[١٠] ، وفيها صور أشجار ، وأمصار ، وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة ، وقلّ شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مثل على تلك الحيطان[١١] .

وحكى البدرى فى « نزهة الأنام فى محاسن الشام » عن بعض المؤرخين أن الرخام كان فى جدران هذا المسجد سبع وزرات ، ومن فوقه صفات البلاد والقرى ، وما فيها من العجائب[١٢] ، وأن الكعبة المشرّفة وضعت صفتها فوق المحراب[١٣] ، ثم فرقت البلاد يميناً وشمالا ، وما بينها الأشجار المثمرة والمزهرة ، وغير ذلك . ولا نعلم إن كانت هذه الصور من عمل العرب فتدخل فيما قصدناه ، أم من عمل صناع الروم الذين استعان بهم الوليد ابن عبد الملك عند بناء المسجد[١٤] .

ولبعض المحدثين قصيدة فى وصف هذا المسجد أوردها ابن عساكر فى « تاريخ دمشق »[١٥] ، والنُوَيرى فى « نهاية الأرب » ، يقول فيها فى وصف الصور :

إذا تفكرت فى الفصوص وما ... فيها تيقنت حذق واضعها
أشجارها لا تزال مثمرة ... لا ترهب الريح فى مدافعها
كأنها من زمرّد غُرست ... فى أرض تبر تغشى بقاعها
فيها ثمار كأنها ينعت ... وليس يُخشى فساد يانعها
تقطف باللحظ لا بجارحة الأيـ ... ـدى ولا تُجتنى لبائعها[١٦]

وذكر أبو هلال العسكرى فى الباب العاشر من «الصناعتين» فى كلامه على ما ينبغى الاحتراز منه فى مفتتح القصائد ، أن المعتصم لما فرغ من بناء قصره بالميدان ، جلس فيه وجمع الناس من أهله وأصحابه ، وأمر أن يلبس الناس كلهم الديباج ، وجعل سريره فى الإيوان المنقوش بالفُسَيْفِسَاء الذى كان فى صدره صورة العنقاء . فجلس على سرير مرصع بأنواع الجوهر ، وجعل على رأسه التاج الذى فيه الدرّة اليتيمة ، وفى الإيوان أسرّة من آبنوس عن يمينه ، وعن يساره من عند السرير الذى عليه المعتصم إلى باب الإيوان . فكلما دخل رجل رتبه هو بنفسه فى الموضع الذى يراه ، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم ، فاستأذنه إسحق بن إبراهيم فى النشيد ، فأذن له ، فأنشده شعراً ما سمع الناس

أحسن منه فى صفته ، وصفة المجلس ، إلا أن أوله تشبيب بالديار القديمة و بقيـة آثارها ، فكان أول بيت منها :

يا دار غـيّرك البلى ومحـاك يا ليت شعرى ما الذى أبلاك

فتطير المعتصم منها ، وتغامز الناس ، وعجبوا كيف ذهب هذا على إسحق ، مع فهمه وعلمه وطول خدمته الملوك .

وجاء فى مجلة لغة العرب (١ : ٨١ — ٩٤) ، التى تصدر فى بغداد ، وصف للتنقيب الذى قام به الأستاذ هرتسفلد الألمانى Herzfeld فى آثار « سُرَّ مَن رأى » التى بناها المعتصم ، ذكرت فيه أنه عثر بين دفائن أطلالها على آثار المسجد الجامع الذى بناه المتوكل ، وشاهد فى بقايا الدور غرفاً وأبهاء زينت جدرانها بتصاوير شرقية ؛ بين بارزة وغائرة فى الجص وصور ملوّنة للآدميين وغيرهم ، بديعة المثال ، حافظة لجدتها على غِيَر الزمان[١٧] . قلنا ولا غرابة فى ذلك ، فقد ذكر ياقوت فى معجم البلدان أن المتوكل بنى قصراً بسُرَّ مَن رأى ، سماه بالمختار ، كانت فيـه صور عجيبة ، منها صورة بيعة فيها رهبان[١٨] ، وأحسنها صورة شهّار البيعة ؛ وهو الذى قيل فيه* :

ما رأينا كبهجة المختـــــار لا ولا مثـل صورة الشهّار
ليس فيه عيب سوى أن ما فيـ ـه سيفنيه نازل المقـــــدار[١٩]

ومن قصور المتوكل المصورة قصر البرج ، وسيأتى ذكره فى الكلام على التماثيل .

ومما يدل على أن مجالس الخلفاء كانت مصـورة الجدران ما حكاه ابن المخلّطة فى « العزيزىّ المحلّى »[٢٠] عن المهتدى بالله العباسى وتقواه وزهده ومخالفته من تقدمه من الخلفاء فى أمور كثيرة ذكرها ، وذكر منها أنه « عمد إلى الصور التى كانت فى مجالس الخلفاء فمحاها وأزال تلك الشخوص المموهة† فى الحيطان وغيرها »[٢١] .

(*) فى معجم البلدان أن ناظم هذا الشعر الواثق ، ولا يخفى أنه ولى الخلافة قبل المتوكل ، فالظاهر أن المتوكل بنى هذا القصر فى خلافة أخيه ، كما ذهب إليه البحاثة الفاضل صاحب مجلة لغة العرب فى مقال له فى مجلة الهلال (٢٧ : ٣٩٤) .

(†) أى المصورة . والتشويهُ من الألفاظ المولدة ، ويريدون به التصوير والنقش .

ومن ذلك الإيوان الذى بناه المعتمد على الله* فى داره ، وفيه يقول أحمد ابن حمديس الصقلّىّ :

نسيت به إيوان كسرى لأننى ... أراه له مولًى من الحسن لا مثلا
كأن سليمان بن داود لم تبح ... مخافتُه للجنّ فى صنعه مهلا
ترى الشمس فيه ليقة تستمدّها ... أكفٌّ أقامت من تصاويره شكلا
لها حركات أودعت فى سكونها ... فما أتعبت فى نقلهنّ يدٌ رجلا[٢٢]

وقال أبو الصلت أميّة بن عبد العزيز الأندلسىّ من أبيات يصف فيها قصراً بمصر يسمى منازل العزّ ، بناه حسن بن تميم بن المعزّ العبيدىُّ[٢٣] :

وبأرجائه مجال طراد ... ليس تنفكّ من وغًى خيلاه
تبصر الفارس المدجج فيه ... ليس تدمى من الطعان قناه
وترى النابل المواصل للنز ... ع بعيداً من قرنه مرماه
وصفوفاً من الوحوش وطير ال ... جو كل مستحسن مرآه
سكنات تخالها حركات ... واختلاف كأنه أشباه[٢٤]

وذكر الشيخ الأكبر فى مسامراته عن بعض مشايخ قرطبة : أن سبب بناء عبد الرحمن الناصر للزهراء ، أن جاريته الزهراء اشتهت أن يبنى لها مدينة يسميها باسمها ، فبناها تحت جبل العروس على ثلاثة أميال من قرطبة ، وجعلها مقره ومقرّ حاشيته ، وسماها باسمها ، ونقش صورتها على بابها[٢٥] .

وسيأتى فى الكلام على تماثيل الزهر عند ذكر بستان خمارويه بن أحمد بن طولون ما اتخذه على جدران قصره من الصور البديعة .

ومن القصور المصورة الجدران ، منظرة بناها الآمر بأحكام الله الفاطمى ببركة الحبش صور فيها شعراءه ؛ كل شاعر وبلده ، واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر فى المدح وذكر المنظرة ، وكتب ذلك عند رأس كل شاعر ، وبجانب صورة كل واحد

(*) هو ابن عباد أكبر ملوك الطوائف بالأندلس المتوفى معتقلا فى مدينة أغمات بالمغرب سنة ٤٨٨ .

رف مذهب أمر أن توضع فيه صرّة مختومة فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ، ويأخذ صرته ، ففعلوا ، وكانوا عدة شعراء . كذا فى «خطط» المقريزى[٢٦] .

ومن بقايا تصاوير الجدران فى العصر الفاطمى لوح حجرى عثروا عليه سنة ١٣٤٥ بالقاهرة ، فى مسجد بيبرس الجاشنكير[٢٧] ، عليه صور طيور متقابلة على أغصان ملتفة بديعة الوضع والتصوير ، وقد حفظ بدار الآثار العربية[٢٨] . والمسجد المذكور بنى فى موضع دار الوزارة الكبرى الفاطمية .

ومن الدور المصورة الجدران دار على بن أفلح الكاتب البغدادى المتوفى سنة ٥٣٣ . حكى سبط ابن الجوزى فى «مرآة الزمان» أن الخليفة المسترشد أعطاه أربع دور فى درب الشاكرية ، فاشترى دوراً إلى جانبها ، وهدم الكل وأنشأها داراً كبيرة ، وأطلق له الخليفة ما يحتاج إليه من الآلات والخشب وخمسمائة دينار ، ورتب له راتباً ، وغرم على الدار عشرين ألف دينار ، وكان طولها ستين ذراعاً فى أربعين ، وأجراها بالذهب ، وصور فيها فنون الصور[٢٩] .

ومنها دار الملك رضوان بحلب ، وفيها يقول الرشيد عماد الدين عبد الرحمن بن النابلسى من قصيدة يمدحه بها سنة ٥٨٩ ، ويذكر ما على جدران الدار من الصور :

دار حكت دارِينَ فى طيب ولا ... عطرٌ بساحتهـــا ولا عطّار
رفعت سماء عمادها فكأنهـا ... قطب على فلك السعود يُدار
وزهت رياض نقوشها فبنفسج ... غضّ وورد يانع وبهـــــار
نَوْر من الأصـباغ مبتهج ولا ... نَوْر وأزهـــار ولا أزهـــار

ومنها :

صور ترى ليث العرين تجاهه ... فيهـا ولا يخشى سطاه صوار*
وفوارساً شبت لظى حرب وما ... دُعيت نَزَالِ ولم يُشَنَّ مغار
وموسّدين على أسرّة ملكهم ... سكراً ولا خمر ولا خمـارُ

(*) الصوار بضم أوله وكسره : القطيع من البقر .

هـــذا يعانق عوده طرباً وذا دأباً يقبـــــــل ثغرَه المزمار

ثم لما تزوج بصفيّة ابنة عمّه الملك العادل وأسكنها فى هذه الدار ، وقعت نار عقب العرس ، فاحترقت واحترق جميع ما فيها ، فجدّدها ، وسماها دار الشخوص ؛ لكثرة ما كان من زخارفها[٣٠] . انتهى ملخصاً من « الدر المنتخب » ومن « كنوز الذهب فى تاريخ حلب »[٣١] .

ومنها القصر الأبلق الذى بناه الظاهر بيبرس فى مرجة دمشق[٣٢] ، ووصفه ابن طولون فى « ذخائر القصر فى تراجم نبلاء العصر »[٣٣] ، فقال : « كان من عجائب الدنيا ، يشرف على الميدان الأخضر شرقيّه ، أنشأه الملك الظاهر ركن الدين عقب رجوعه من حجته فى المحرم سنة ثمانٍ وستين وستّمائة ، كذا رأيت هذا التاريخ أعلى بابه الشمالىّ وعلى اسكفّته[٣٤] ضرب خيط من رخام أبيض ، ووسطه مكتوب : عمل إبراهيم بن غنائم المهندس ، وبابه الآخر ينفذ إلى الميدان . وفى واجهته البلقاء ثلاثون شباكا سوى القمارى[٣٥] ، ووسطه قاعة بأربعة لواوين* قبلى وشمالى فى صدرهما شاذروانان[٣٦] ، وغربى وشرقى فى صدر كل منهما ثلاثة شبابيك ، فالغربيات مطلات على الطريق الآخذ إلى الحمام وتربة الصوفية ، والشرقيات مطلات على الميدان ، وعلى واجهته الشرقية مائة أسد منزّلة صورها† ، وعلى الشمالية اثنا عشر أسداً منزّلة صورها بأبيض فى أسود » انتهى . قلنا إنما صوّر الظاهر الأسود على واجهتى قصره لأن شعاره كان على صورة أسد[٣٧] ؛ وإبراهيم بن غنائم كان من كبار مهندسى ذلك العصر[٣٨] ، وهو الذى تولى بناء الظاهرية بدمشق ، ولم يزل اسمه منقوشاً على بابها إلى اليوم بعبارة « عمل إبراهيم بن غنائم المهندس رحمه الله تعالى » ، يُرى ذلك فى الزاوية الشمالية من الباب على ارتفاع نحو خمس عشرة ذراعا .

وفى « خطط » المقريزى أن الأشرف خليل بن قلاوون لما عمر الرفرف بقلعة الجبل جعله

(*) جمع ليوان فى اللغة العامية ، وصوابه إيوان ، وجمعه إيوانات وأواوين .

(†) الظاهر أن فى العبارة سقطا وأن الساقط بعد قوله صورها « بأسود فى أبيض » كما يؤخذ مما بعده .

عالياً بحيث يشرف على الجيزة كلها ، وبيّضه وصوّر فيه أمراء الدولة وخواصّها ، وعقد عليه قبة على عمد ، وزخرفها ، وصار مجلساً يجلس فيه السلطان إلى أن هدمه أخوه الناصر محمد سنة ٧١٢[٣٩] .

وقال صديقنا الأستاذ البحاثة السيد كرد على فى «خطط الشام» : «ومن النقوش الكثيرة التى بقيت محفوظة على بعض مصانع الشهباء نقوش باب أنطاكية وباب النصر ، وعلى هذا قطعة من إفريز تمثل كرمة معرّشة يركض إلى جانبها أرنب»[٤٠] . ثم قال نقلا عن الشيخ الغزّى : «إن النقّاشين فى حلب أصناف ، منهم من ينقش على الحجر وهم نوابغ البنائين ، وفى المبانى القديمة كثير من النقوش الحجرية تشهد ببراعة البنّائين الحلبيّين فى القرون الماضية ، وتدل دلالة واضحة على نبوغهم بصنعة النقش ؛ من ذلك صورتا وجهى أسدين فى حجرين مرصوفين فى جانبى أحد أبواب قلعة حلب ، لا يفرق الناظر إليهما فى أول وهلة بين ملامحهما ، فإذا أمعن النظر فيهما تبين له أن وجه أحدهما يضحك ووجه الآخر يبكى ، مما دلّ على براعة النقاش»[٤١] .

ومن آيات الصناعة العربية ومدهشها ما كان مصوراً على جدران حمّام بناه ببغداد شرف الدين هارون ابن الوزير شمس الدين الجوينى ، فإنه لم يقتصر على إبداع نقشه وتذهيبه ، وفرش أرضه بالفصوص الملونة البديعة التنسيق حتى صقل جدرانه وصور عليها الصور المتقنة المحاكية للآدميين بالألوان الزاهية ، وطلى أنابيبه بالفضة والذهب واتخذ لها صنابير على هيئة الطير كلما خرج منها الماء صوتت[٤٢] .

ومن الحمامات المصورة حمّام سيف الدين بدمشق ، وفيه يقول عمر بن مسعود الحلبى الشهير بالمحّار من قصيدة* [٤٣] :

وخط فيها كل شخص إذا لاحظته تحسبه ينطق

(*) ديوانه بالخزانة البلدية بالاسكندرية ، وله ترجمة فى «فوات الوفيات» لابن شاكر ، جاء بها أنه توفى بدمشق سنة ٧٠٠ ، وورد لقبه فى النسخة البولاقية محرفا بالمجان ، وترجمه السيد محمد أمين المدنى ترجمة مختصرة فى طبقاته جاء لقبه فيها المحار وهو الموافق لما فى ديوانه ، وترجمه ابن تغرى بردى فى «المنهل الصافى» فقال : توفى بعد سنة ٧٠٠ إما إحدى عشرة أو اثنتى عشرة وسبعمائة .

ومثل الأشجار فى لونها ولينها لو أنَّها تورق
أطيارها من فوق أغصانها بودها تنطق أو تزعق
وهيئـــة الملك وسلطانه وجيشه من حوله يحدق
هـذا بسيف وله عبســة وذا بقوس وبه يعلق

ووقفت فى كتاب «حدائق النمَّام فى الـكلام على مايتعلَّق بالحمَّام»(٤٤) لشهاب الدين أحمد بن محمد بن الحسن بن أحمد الخيمىّ الـكوكبانىّ من علمـاء القرن الثانى عشر على فصل يدل ما فيه على أنَّ تصوير جدران الحمَّامات لم يكن بالنادر المستغرب عندهم ؛ بل كان كثير الشيوع حتى لهج بإنكاره فريق من العلماء ، وهو رأى المؤلف أيضاً ونص ما فيه : "قال الحـكماء وينبغى أن يكون مَسْلَخُ الحمام ، أى مخلعه الذى تخلع فيه الثياب عن الأبدان لطيف الصنعة ، واسع الفضاء ، وأن تـكون فيه التصاوير من الصور اللطيفة الأنيقة كالأشجار والأزهار والأشـكال الحسنة والعجائب من الأسلحة ونحوها ؛ لأجل تحصيل الراحة بالنظر فيها عند الاتـكاء ، وقد حلَّل الحمَّام القوى ؛ لأن المسلخ إذا كان كذلك كان موافقاً للقوى الثلاث ؛ لأن التحليل واقع فيها بمـا فيه مما ذكر ؛ فالأشجار ونحوها للنفسية ، والأسلحة للحيوانيَّة ، والثمار للطبيعية(٤٥) ، فلا شك فى أن الحمَّام آخذ من القوى محلّل بلا لبس ، وخصوصاً إذا طال المقام فيه ، والنظر فى الأشياء المذكورة منعش مقوٍّ . هكذا قال الحـكماء : والذى أقوله : إنهم إن أرادوا بالأشـكال الحسنة صـور الحيوانات الممثلة فى جدران الحمَّام فذلك من المنكرات التى تجب إزالتها عند العلماء وأهل الورع . قال الإمام أحمد بن حنبل : إن الإنسان إذا دخل الحمـام ورأى فيه صورة فينبغى أن يحكها فإن لم يقدر خرج . وقال الإمام الغزالىّ — رضى الله عنه — فى كتاب «الإحياء» عند ذكر منكرات الحمام* ما لفظه ونصّه : منها «الصور على باب الحمام أو داخل الحمـام ، فذلك منكر تجب إزالته على كل من يدخله إن قدر عليها ؛ فإن كان الموضعُ مرتفعاً لا تصل إليه يده ، فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة ، فليعدل إلى حمَّـام آخر فإن مشاهدة

(*) ورد ذلك فى الباب الثالث من كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، وهو الـكتاب التاسع من ربع العادات من إحياء علوم الدين .

المنكر غير جائزة . ويكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها ، ولا يمنع من تصوير الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان» . انتهى كلامه رحمه الله تعالى . وقال الإمام يحيى بن حمزة عليه السلام فى « كتاب التصفية »[٤٦] عند ذكر الخمس الصور من منكرات الحمام ما لفظه : « الصورة الأولى ما يحصل من صور الحيوانات التى هى فى جدر الحمامات وبيوتها الداخلة والخارجة ؛ فإن ما هذا حاله يجب تغييره ، ويكفى فى تغييرها قلع رءوسها وفصلها وتشويه وجوهها بحيث تبطل صورتها ، ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش ؛ فإنها مباحة ، فإن لم يمكن تغييرها ، فإنه يعدل إلى حمّام آخر ؛ فإن مشاهدة المنكر غير جائزة » " . انتهى كلام الإمام يحيى صلوات الله عليه وسلامه وانتهى ما وجدته فى الكتاب المذكور .

وفى هذا الكتاب من رسالة لمؤلفه ، ركيكة العبارة ظاهرة التكلف كتب بها إلى صديق له يستدعيه إلى حمّام ، ويصف له ما حواه من الزخرف وبديع الصنعة ، يقول فيها فى وصف صور الجدران وانعكاس خيالها فى ماء بركته : « فى جدرانه صور من حسان الدُّمَى ، تريق بحسن جفنها من الناظرين الدما . وأشجار كأشجار الحديقة ، تسقيها من تحتها فسقيَّة بأمواه غديقة ، يالها من فسقية قطع العامر أحجار رخامها ، فهى مرخّمة ، وأنّق عمارتها بذوات الألوان المختلفة ، فهى مسهّمة ، فترخيمها للتحسين ، ورونقها ثابت على طريقة واحدة من الصفاء ، وإن كان ذا تلوين . كأنها مرآة صقلية الجوانب ، قد وضعت بين يدى الخرّد الكواعب . فجميع الصور المصورة فى الجدران المنصوبة ، ينظرن فيها نظر الغادة المحبوبة ، فهن يتنافسن على النظر فيها تنافس العشّاق على الحبيب ، وينظرن فيها أيتهن الأحسن الأشبه بالظبى الربيب . بل أيتهن أجمل وجهاً وأسحر طرفاً ، وأيتهن قد حكت الغصن المائل من النعمة عطفاً » . انتهى كلامه بنصه وعجره وبجره ، ولولا مكان الاستشهاد على التصوير ما ذكرت منه حرفاً .